حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

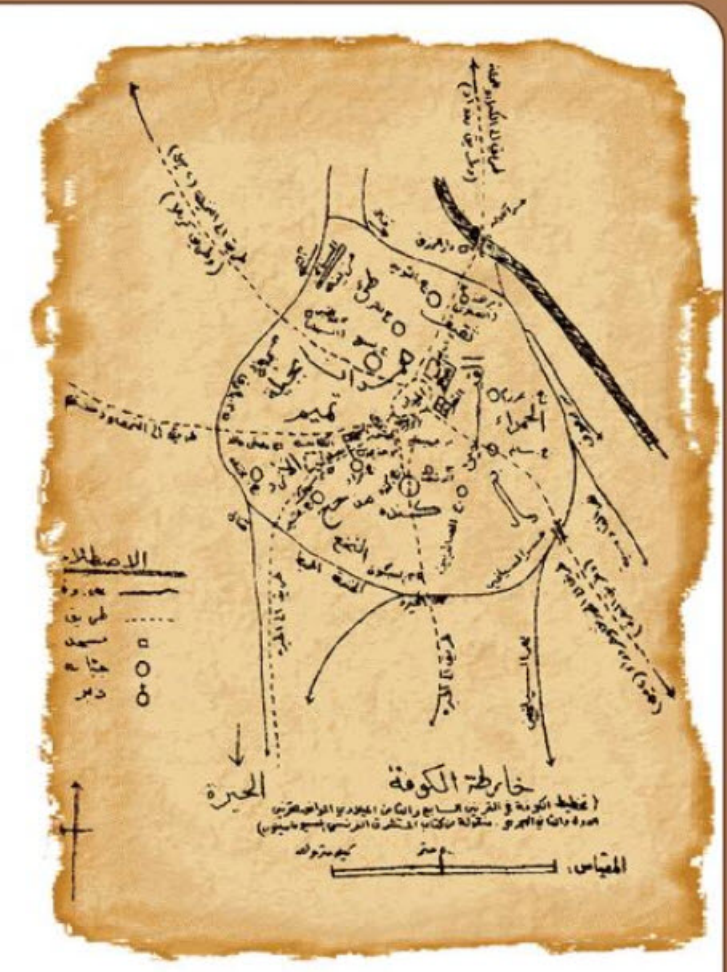

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

نشأة علم الكلام في الكوفة

الأستاذ الدكتور نعمة محمد إبراهيم

كلية الآداب- جامعة الكوفة

يحتل علم الكلام مكانة كبيرة بين مباحث الفكر الفلسفي الإسلامي من جهة وبين علوم العقائد من جهة أخرى، فقد درج الباحثون في الفلسفة الإسلامية على اعتبارها تتضمن المباحث الآتية: الفلسفة الإسلامية متمثلة بفلاسفة الإسلام كـ(الكندي والفارابي وابن سينا والبغدادي أبو البركات وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وصدر الدين الشيرازي) وقد كان قصدهم التوفيق بين الفلسفة والدين.

وهناك مبحث مهم هو مبحث التصوف الذي يتعلق بالجانب الروحي في الشريعة.

وهناك مبحث ثالث هو مبحث أصول الفقه الذي يهتم في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام.

وأما جوهر بحثنا فهو علم الكلام متى نشأ..؟ وهل كان نشأه في مدينة الكوفة؟ أم مدينة البصرة؟ أم في بغداد...؟.

الإجابة على هذه الأسئلة تضمنها البحث.

تعريفات علم الكلام:

عرفه (الفارابي (ت٣٣٩): صناعة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف ما خالفها بالأقاويل[١].

ويميز (الفارابي بين علم الكلام، والفقه، حيث أن الأول يتعلق بنصرة العقائد التي صرح بها واضع الملة، أما الثاني علم الفقه يتعلق باستنباط العقائد والشرائع جميعاً.

استناداً لتعريفه لهذا العلم «الصناعة التي بها يقدر الإنسان على أن يستنبط تقدير شيء يصرح به واضع الشريعة»[٢].

أما الغزالي (ت٥٠٥هـ) عرف علم الكلام بأنه مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة[٣].

(١) الفارابي: إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، القاهرة ١٩٣١، ص٦٩-٧١.

(٢) المصدر نفسه، ص٧١.

(٣) الغزالي، المنقذ من الضلال، القاهرة، ١٣٠٩هـ ص٦-٧.

و(التهاوني (ت١١٥٨هـ)) عرفه بقوله: أنه علم يقتدر معه إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه، وفي اختيار إثبات العقائد على تحصيلها أشعار بأن ثمرة الكلام إثباتها على الغير، وبأن العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع ليعتد بها، وإن كانت مما يستقل العقد فيه[٤]. (ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)) عرف علم الكلام تعريف يتضمن التعريفات المشار إليها أعلاه[٥].

سمي هذا العلم بأسماء مختلفة منها:

أ- الفقه الأكبر: سماه بهذا الإسلام الإمام (أبو حنيفة) في كتابه الفقه الأكبر حيث فرق بين الفقه في العلم والفقه في الدين وفضل الثاني على الأول بقوله: الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم إلاّ أن الفقه في الدين أصل، والفقه في العلم فرع، وفضل الأصل على الفرع معلوم[٦].

لهذا كان النظر في الدين بأحكامه وعقائده يسمى فقهاً، ثم خصمت الاعتقادات باسم الفقه الأكبر، وخصمت العمليات باسم الفقه، وسميت مباحث الاعتقادات بعلم التوحيد أو الصفات... أو علم الكلام.. لأن أشهر مسألة قام حولها الخلاف هي مسألة كلام الله ويقال بقوة أدلته أصبح هو الكلام دون ما عداه كما يقال في الأقوى الكلاميين هذا هو الكلام[٧].

ب- علم التوحيد والصفات.

ج- علم الأصول: تسمية (الشهرستاني) بعد استناده لقول بعض المتكلمين أن الأصول معرفة الباري تعالى بوحدانيته وصفاته ومعرفة الرسل بآياتهم وبيناتهم، وبالجملة كل مسألة

(٤) التهاوني، كشاف اصطلاحات الفنون، كلكتا سنة ١٨٦٢م، ص٢٠.

(٥) المقدمة، «فصل الكلام» تحقيق علي عبدالواحد وافي ط، ١٩٦٠، ج/٣، ص١٠٣٥.

(٦) التهاوني: كشاف اصطلاحات الفنون، مادة علم الكلام.

(٧) الدكتور عبدالهادي أبو ريدة، تأريخ الفلسفة في الإسلام، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٩٥.

يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهي من الأصول، ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسماً إلى معرفة وطاعة، والمعرفة أصل والطاعة فرع، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصولياً ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعياً أما الأصول: هو موضوع علم الكلام أو الفروع هو موضوع الفقه[١].

د- علم النظر والاستدلال.

هـ- علم العقائد: سمي بهذا الاسم لأنه يتكفل ببحث العقائد الدينية وإثباتها بالأدلة اليقينية، والدفاع عنها ضد العقائد والأفكار المخالفة لها.

يقول (عضد الدين الابجي (ت٧٥٦هـ)) إنما سمي الكلام إما لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة، وإما لأن أبوابه عنونت أولاً الكلام في كذا، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التشاجر والسفك تغلب عليه، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات مع الخصم[٢].

نعم كان الكلام عن مسائل تخاصم العلماء فيما بينهم وهذه ظهرت في الإسلام خصوصاً بعد وفاة الرسول محمدﷺ، وأبرزها مسألة الإمامة، ومسألة الصفات.. الخ.

مباحث علم الكلام:

إن علم الكلام شأنه في ذلك شأن سائر العلوم الإسلامية قد وجد منطلقاً من القرآن منهاجاً وموضوعاً، فمنجياً لا يتعارض النظر مع الإيمان، لقد حث القرآن المسلمين على أن ينظروا في ملكوت السموات والأرض وأن يتفكروا وأن يتدبروا ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[٤] و﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[٥] إذاً يجب أن يتفكر الإنسان في خلق الله، في الوجود، في ذاته، لكي يوحد الخالق ويؤمن به وباليوم الآخر. ومن المباحث المهمة في مادة علم الكلام مبحث الإيمان والإسلام، لأنه اللبنة الأولى للعقيدة الإسلامية وعلى أساسها تنشأ آراء وتتشعب الأفكار العقائدية منطلقة من هذا الأساس. وبعد هذا المبحث يأتي مبحث التوحيد، والنبوت، والإمامة، والمعاد.

تطرح هذا السؤال مادام علم الكلام في جوهره يتضمن هذه المباحث لماذا نحدد له تاريخ معين؟ وتخصص فرقة معينة بأنها سبقت الفرقة الأخرى. كلام الله محفوظ فسره نبينا الكلام محمدﷺ وآله الطيبين الطاهرين دون لبس وغموض. قال الإمام عليؑ: «الحمد لله الأول فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه[٦]». وهذا الكلام إشارة للآية الكريمة ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ**﴾[٧].

وقول آخر للإمام عليؑ عن الخلق قال: «فلما مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه، وجعله أول جبلته وأسكنه جنته، وأرغد فيه أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته، والمخاطرة لمنزلته، فأقدم على ما نهاه عنه موفاة لسابق علمه، فأهبطه بعد التوبة، ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجة به على عباده..[٨]».

يقول (ابن أبي الحدي) المعتزلي في شرحه «مهد أرضه» سواها وأصلحها، ومنه المهاد وهو الفراش، والجبلة يعني الخلق، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ**﴾[٩] ويجوز الجبلة بالضم، وقرأ بها الحسن البصري، وقرأ قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً**﴾[١٠]، كل هذه المسائل الكلامية أشار إليها الإمام عليؑ حيث استند عليها البصري وغيره من المتكلمين»[١١].

كذلك من المباحث المهمة في علم عصمة الأنبياء.

أسباب ظهور علم الكلام:

لا تزال حتى اليوم، ومنذ الينابيع الأولى لحركة الفكر الإسلامي المشرق، تبرز على صعيد المراجع الكبرى معركة عنيفة بين أصحاب ومؤيدي الفرق والمدارس الكلامية المختلفة.. وكل منها يزعم بأنه هو مؤسس علم الكلام وعلى يديه قد نشأ ونمى، وأنه واضع ركائزه الأولى وخطوطه الأساسية. ومن الملاحظ خصوصاً من الناحية الأكاديمية أن هذا الصراع الفكري يكون غالباً مشحون بالعاطفة. لذلك فلا يكاد الباحث المنصف يتحسس طريقه إليها ليتمسك بالحقيقة والواقع إلاّ بعد جهد وعناء وحذر.

فالإمامية يذهبون على أنهم واضعو الركائز الأولى لعلم الكلام والسابقون إلى رصف لبناته ومسائله وأصوله٨، والدليل على ذلك بأن الأئمة الأطهار من آل البيت المحمديؑ قد كشفوا الكثير من المسائل الكلامية التي وردت في أحاديثهم وخطبهم ومناظراتهم مع من طلب المناظرة، من أمثال ما ورد عن الإمام عليؑ مع مجموعة كبيرة من الصحابة وبعض الخصوم خصوصاً بعد وفاة الرسول محمدﷺ وأثناء خلافته.

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص٧، ص٤٧.
(٢) الابجي، الموقف، طبعة استانبول، ١٢٨٦هـ ص١٦.
(٣) سورة النحل، آية/١١.
(٤) سورة النحل، آية/١٢.
(٥) سورة البقرة، آية/٧٣، ٢٤٢.
(٦) نهج البلاغة، الجزء السابع، ص٦٧، خطبة ٩٥.
(٧) سورة الحديد، آية/٣.
(٨) نهج البلاغة، الجزء السابع، ص٣، خطبة/٩.
(٩) سورة الشعراء، آية/١٨٤.
(١٠) سورة يس، آية/٦٢.
(١١) شرح نهج البلاغة، ج/٧، ص٧-٩.

وكذلك هناك احتجاجات ومناظرات حدثت مع الأئمة الآخرين وبخاصة المناظرات التي حدثت مع الإمام الصادق عليه السلام المعروفة بدقتها وعمقها والتي احتواها أكثر ما احتواها كتابي توحيد المفضل وتوحيد الصدوق بأسلوب علمي دقيق[1]، وهذا ما سنشير إليه أثناء البحث إن شاء الله تعالى.

وهناك رأي على لسان «طاش كبري زاده» حيث يقول: أعلم أن مبدأ شيوع الكلام كان بأيدي المعتزلة، والقدرية في حدود المائة من الهجرة لأن الاعتزال كان من جهة (واصل بن عطاء (ت١٣١هـ))، وقد ظهر أواخر الصحابة وزمن بني أمية القول بالجبر والقول بحرية الإرادة وخلاصة القول هناك أسباب داخلية أدت إلى نشوء علم الكلام أبرزها المناظرات حول تفسير القرآن وذلك ضمن محور الفضول العقلي، والسبب الآخر التوسع الإسلامي وإقناع غير العرب للدخول في الإسلام، وكثرة الفتن والحروب التي وقعت في مدينة الكوفة وغيرها من المدن الإسلامية جعلت الإنسان المسلم يطرح أكثر من سؤال لم يحدث كل هذا!! لابد من الإجابة التي تحوي في طياتها الحوار والجدل لغرض الإقناع[2].

يقول أحد المتكلمين «واعلم أن المتكلمين اختلفوا في عصمة الأنبياء، ونحن نذكرها هنا طرفاً من حكاية المذهب في هذه المسألة على سبيل الاقتصاد ونقل الآراء على سبيل الحجاج، وتخص قصة آدم عليه السلام والشجرة بنوع من النظر، إذا كانت هذه القصة مذكورة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل؛ فنقول: اختلف الناس في المعصوم ما هو؟ فقال قوم: المعصوم هو الذي لا يمكنه الإتيان بالمعاصي، وهؤلاء هم الأقلون من أهل النظر، واختلفوا في عدم التمكن كيف هو؟ فقال قوم منهم: المعصوم هو المختص في نفسه أو بدنه أو فيهما، بخاصته تقتضي امتناع إقدامه على المعاصي.

وقال قوم منهم: بل المعصوم مساوٍ في الخواص النفسية والبدنية لغير المعصوم، وإنما العصمة هي القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على المعصية، وهذا قول الأشعري نفسه، وإن كان كثير من أصحابه قد خالفه فيه.

وقال الأكثرون من أهل النظر: بل المعصوم مختار متمكن من المعصية والطاعة[3].

وعن هذا قال الإمام علي عليه السلام: «فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف، حتى أفضت كرامة الله سبحانه وتعالى إلى محمد صلى الله عليه وآله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الأرومات[4] مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه؛ وانتجب منها أمناءه، عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر وشجرته خير الشجر، ثبتت في حرم وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمر لا ينالن فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى.

سراج لمع ضوءه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه، سيرته العضد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل، أرسله على حين فترة من الرسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم[5].

وهناك خطبة للإمام علي عليه السلام في الكوفة عن ذكر الرسول محمد صلى الله عليه وآله: «مستقر خير مستقر، ومنبته أشرف منبت، في معادن الكرامة، ومماهد السلامة، قد صرفت نحو أفئدة الأبرار، وثنيت إليه أزمة الأبصار دفن الله به الضغائن، وأطفأ به النوائر، ألف به إخواناً، وفرق به أمرنا، وأعزّ به الذلة، وأذلّ به العزّة، كلامه بيان، وصمته لسان»[6]. بعد هذا النص استدل العلماء على عصمة الأنبياء بأدلة عديدة أهمها:

١- لو صدر منهم الذنب، لحرم أتباعهم فيما يصدر عنهم، مع أن أتباعهم فرض وبالإجماع، ولقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾[7].

٢- لو أذنبوا لردت شهادتهم، إذ الشهادة لفاسق بالإجماع، ولقوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾[8]، لأن من لا تقبل شهادته في القليل من متاع الدنيا كيف تسمع شهادته في الدين القيم.

٣- إن صدر عنهم ذنب وجب زجرهم وتعنيفهم، لعموم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولاشك أن زجرهم

(١) وهناك مراجع كثيرة تؤكد هذا الرأي أبرزها «أوائل المقالات في المذاهب المختارات للشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) والفصول المختارة من العيون والمحاسن للشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ) وكذلك الشافي في الإمامة، وينظر الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ) في كتابه تلخيص الشافي، ج٢، ج٣. والعلامة الحلي (ت٧٢٦هـ) وكتابه الألفين، وكشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد. وكذلك أبو منصور الطبرسي (ت٦٢٠هـ) في الاحتجاج المجلد٢».

(٢) يمكن الرجوع إلى المصادر الآتية لمعرفة الأسباب الداخلية والخارجية لنشوء علم الكلام منها، تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام لعلي الفارابي، كذلك الدكتور محمد محمود صبحي، في علم الكلام، ج١، ص١٧ إلى ص٩٥.

(٣) ينظر تفصيلات هذا الموضوع في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي، ج٧، ص٧، وما بعدها، وكذلك الدوافي على العقائد العضدية، ج٢، ص٢٧٩، والمواقف، ص٥٧٥، وشرح العقيدة الحاوية لابن أبي العز، ص٣٥٦.

(٤) الأرومات: جمع أرومة وهي الأصل، ويقال أروم بغير الهاء ومعنى صدع: شق.

(٥) نهج البلاغة، ج٧، ص٦٢.

(٦) نهج البلاغة، ص٦٨، خطبة ٩٥.

(٧) سورة آل عمران، آية/٣١.

(٨) سورة الحجرات، آية/٦.

إيذاء لهم، وإيذاؤهم حرام إجماعاً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾[١].

٤- لو ذنبوا لاستحقوا اللوم والطعن والعذاب، لدخولهم تحت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾[٢].

وما نقل بطريق خبر الآحاد عن معصية بعض الأنبياء وذنوبهم خطأ وافتراء على الله تعالى، والنبي يجب أن يتصف بالفطنة والذكاء وسداد الرأي ويجب أن يكون سليماً من كل نقص، ويجب أن يكون كريماً زاهداً في دنياه، فلم يكن يطلب عمله أجراً، كما يجب أن يكون زاهداً في الجاه والمنصب إذاً هذه الصفات الواجبة تجعلنا نؤكد القول أن جميع الأنبياء عليهم السلام يتصفون بصفة الكمال الإنساني إلاّ أنهم بعيدون عن كل نقص بشري[٣].

يقول الإمام عليه السلام عن آل بيت النبي(ع): «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا»[٤].

يعني كلامه عليه السلام هناك صفات لهؤلاء الأئمة أبرزها معرفة الله، وطاعة الله، وعبادة الله.

وهذا موضوع شغل علماء الكلام مما دفعهم إلى الجدل فيه والكلام عنه.

إذ أن علم الكلام نشأ في الكوفة، ونما وتطور في عصر الأمويين، وتكامل في مطلع العصر العباسي حيث بلغ أوج رقيه[٥].

يقول (أحمد محمود صبحي) في كتابه علم الكلام «يقول جعفر الصادق المتوفى في عام ١٤٨هـ: تكلموا فيما دون العرش ولا تتكلموا فيما فوق العرش فإن قوماً تكلموا في الله فتاهوا»[٦].

اليوم الآخر:

اليوم الآخر لابد منه مادام عالمنا مصيره الفناء، ولا يمكن إطلاقاً أن نستسلم للقول أن الإنسان والكون أزليين، هذا ما يرفضه العقل. فالإنسان يموت، والكون يتلاشى ويفنى، وتتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات، ثم ينشئ الله النشأة الآخرة، فيبعث الله الناس جميعاً، ويرد إليهم الحياة مرة أخرى. قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزالَها * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقالَها * وَقالَ الإِنْسانُ ما لَها * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها﴾[٧].

لإثبات يوم الأخر وذكر الموت قال الإمام علي عليه السلام: «ثم أن الدنيا دار فناء وعناء، وغير وعبر، فمن الفناء أن الدهر موتر قوسه، لا تخطئ سهامه، ولا تؤسى جراحه، يرمي الحي بالموت، والصحيح بالسقم، والناجي بالعطب، أكل لا يشبع، وشارب لا ينقع، ومن العناء أن المرء يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكن، ثم يخرج على الله تعالى، لا مال حمل، ولا بناء نقل»[٨]... ثم قال عليه السلام: «واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة، خير مما نقص من الآخرة، وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح أو مزيد خاسر!!»[٩].

كذلك اهتم القرآن الكريم بتقدير الإيمان بهذا اليوم: واليوم الآخر في القرآن مرتبط مع الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[١٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١١].

﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[١٢].

ولهذا الموت حق، والمعاد الجسماني حق، وقائع الساعة إذا جزأها إلى أجزائها الصغيرة هو قادر على إعادتها إلى ما كانت عليه، متقنة، تضبط الوقت بدقة، ولا يستطيع أحد إنكار ذلك، فالشك في الآخرة والبعث هو شك في قدرة الله تعالى على الخلق الأول وفي كونه علّة الوجود.

(١) سورة الأحزاب، آية/٥٧.

(٢) سورة الجن، آية/٢٣.

(٣) الجويني، لمع الأدلة، ص٢١٥.

(٤) نهج البلاغة، ص٧٦. علماً أن الإمامية ترى لايمكن الاستقرار بالحياة والاطمئنان التام إلاّ بموالاتهم كونهم عليهم السلام منصوص عليهم بآيات كثيرة أهمها «في سورة آل عمران، آية/٦١، وفي الأحزاب، آية/٣٣، وفي المائدة، آية/٥٥، وفي الرعد آية/٧، وهناك أكثر من حديث للرسول فيه إشارة على إمامة علي عليه السلام منها حديث الغدير، حديث المنزلة، وحديث الراية، واستخلافه في المدينة، وحديث «علي مع الحق والحق مع علي» وحديث مدينة العلم «أنا مدينة العلم وعلي بابها».. ينظر تفصيلات هذا الموضوع، العلامة الحلي: الألفين، والدكتور أحمد محمود صبحي، نظرية الإمامة وما يتعلق بخطبة الغدير، ينظر (الصواعق المحرقة) لابن حجر الهيتي، ص٢٥.

(٥) الدكتور علي مصطفى الغرابي، تاريخ القرن الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين، ص١٨، وما بعدها.

(٦) في علم الكلام، ص٧.

(٧) سورة الزلزلة، آية/١، ٢، ٣، ٤.

(٨) نهج البلاغة، الجزء السابع، ص٢١٥، كذلك ينظر خطبته(ع) رقم١١٢ في صفحة ٢٤٦-٢٤٧.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) سورة البقرة، آية/١٧٧.

(١١) سورة البقرة، آية/٦٢.

(١٢) سورة الأعراف، آية/٢٩.

والغاية من الآخرة تجعلنا أكثر اطمئناناً في هذه الحياة الفانية، إن الإيمان باليوم الآخر يجعل لحياتنا غاية سامية أو هدفاً أعلى، وهذه الغاية هي فعل الخيرات، وترك المعصيات أو المنكرات، والتحلّي بالفضائل والابتعاد عن كل رذيلة ضارّة بالإنسان.

كل هذه المسائل أثارت علماء الكلام في الخوض بها والسؤال عنها والتعمق في إجابتها، فكان مصدر إثارتها مدرسة الكوفة الحامل لوائها الإمام علي عليه السلام.

إذا كانت هذه مباحث علم الكلام، متى نشأ إذاً علم الكلام؟ هناك عدة آراء منها إرجاعها إلى عهد الرسول محمد صلى الله عليه وآله ومنها رأي أرجع نشوؤه على عهد الخلفاء الراشدين، ورأي يعتقد أصحابه أنه نشأ على يد المعتزلة.

الرأي الأول الذي أرجعه على عهد النبي صلى الله عليه وآله فاعتبر هذا العهد أول عهد للناس بعلم الكلام، مسندهم في ذلك الرواية الآتية:

روى في حديث شريف: «أن النبي صلى الله عليه وآله خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ورجل يقول: ألم يقل الله كذا؟ وآخر يقول: ألم يقل الله كذا؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: أبهذا أمرتم؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا... الخ».

وموضوع الشاهد من الحديث في القدر يدل على أن المسائل الكلامية كانت موضع جدل ونقاش بين المسلمين وهو مما يساعد على إرجاع بداية نشأة هذا العلم إلى ذلك العهد.

والرأي الثاني... فبعد وفاة الرسول الأمين صلى الله عليه وآله حدثت حوادث كثيرة كانت مثار جدل كلامي فحدثت بعض الآراء الكلامية أبرزها مسألة الإمامة وشروطها، والخلافة ومن هو أحق بها وأجدر لإشغالها، ثم ترددت بعد ذلك وبعد نشوب الحرب بين الإمام علي عليه السلام وبين معاوية بن أبي سفيان، وبين الإمام وعائشة، وما تبع ذلك من حركات الخوارج وجدالها بعد قضية التحكيم... إن كل هذه القضايا وغيرها التي حدثت في الكوفة، أجاب الإمام علي في حياته على جميع الاستفسارات التي تحوي جوهر علم الكلام كانت سبباً لنشوء علم الكلام. والرأي الثالث من الباحثين ذهب إلى أن نشوءه لم يسبق أو لم يتعد عهد الخلافة الأموية أو مطلعها، وله على رأيه هذا دلائل كثيرة ومؤيدون أكثر، ومن تلك الدلائل بعض المدارس التي عنيت ببعض المسائل هذا العلم في هذا العصر كالجهمية والجهنية[1].

لأنه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] كل شيء خاشع له، وكل شيء قائم به، غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف. من تكلم سمع نطقه، من سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه.

موضوع الصفات الإلهية:

قسم بعض المتكلمين الصفات الإلهية إلى ما يأتي:

١- **الصفات النفسية**: وهي الوجود.

٢- **الصفات السلبية**: وهي خمس: القدم، البقاء، مخالفة الحوادث، القيام بالنفس، والوجدانية.

٣- **صفات المعاني**: كالقدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. واختلفوا في صفة التكوين، على ما سيأتي بيانه.

أما بالنسبة إلى صفة الوجود عرفها سعد الدين التفتازاني بأنها:

صفة ثبوتية، يدل الوصف بها على نفس الذات، دون معنى زائد عليها يعني صفة جنس يدخل فيه سائر الصفات.

ثبوتية: نسبة إلى الثبوت، لكونها ثابتة في الذهن، فتخرج الصفات السلبية كالقدم والبقاء.

بها: أي المشتق منها، إلاّ بها بنفسها، لعدم صحة ذلك، فنقول: الله موجود، ولا نقول: الله وجود.

على نفس الذات: أي أنها لا تدل على شيء زائد على الذات، فالذات نفسها لا تتعقل إلاّ بوجودها، ولذلك سميت نفسية. فتخرج صفات المعاني والمعنوية.

دون معنى زائدة عليها: تفسير للقول على نفس الذات، ووجود الله تعالى وجود كامل ذاتي، أي: أنه موجود لذاته، لا لعلة مؤثرة فيه، لأن من خصائص الذاتي: أنه لا يقبل العدم.

أما وجود غيره (كل ما سوى الله تعالى) فهو وجود ناقص تبعي، أي أنه مستمد من غيره، ومتوقف على من واجده لأن من خصائص التبعي أنه لابد أن يقوم بين عدمين سابق ولاحق[3].

ولو تتبعنا هذه الآراء لوجدنا أساس النظرية قد وجدت في كلام سبد الحكماء وإمام المتكلمين قد أكدها وهو الإمام علي عليه السلام بقوله: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته، التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها

(١) الجهمية أتباع جهم بن صفوان أتباع معبد الجهني وغيلان الدمشق. والدليل على ظهورها في هذا العصر هو: ما إذا علمنا بأن هشام عبدالملك الذي توفي سنة ١٢٥ وتقلد الخلافة سنة ١٠٥ كان قد وضع جهماً على قضائه، وبأن وفاة جهم هذا لم تتجاوز سنة ١٢٨ وما إذا علمنا أيضاً، بأن الجهني قد قتل سنة (٨٠هـ) والدمشقي قتل في بداية توليه هشام الخلافة... لهذا إذا علمنا ذلك اتضح لنا بأن تطور هاتين المدرستين كانت في زمن الأمويين.

(٢) الدكتور أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، ج/١، ص١١٩، وما يتعلق بالصفات الأخرى ينظر العلامة الطبرسي، الاحتجاج، كذلك المرتضى، الآمالي، ج/١، ص٥٩٣، والشيخ الطوسي، التبيان، ج/٨، ص١٨٠، وما بعدها.

(٣) ينظر تفصيلات هذا الموضوع الدكتور قحطان الدوري ورشدي محمد عليان: في أصول الدين الإسلامي، ص١١٥، وما بعدها.

غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده»[1] يعني هذا لا يمكن إطلاق أي صفة من صفات الباري تعالى على الإنسان، إلاّ أن هذه الصفات إنما تطلق على الله لذاته بينما تطلق على الإنسان لمعنى خارج عن ذاته، لأن صفة القدرة وصفة العلم والحياة هو تعالى، فالله حي عالم قادر بذاته لا بحياة وعلم وقدرة زائدة على ذاته، وهذا هو معنى قوله عليه السلام كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه.

مناظرات كلامية:

روى (المفيد) في (الإرشاد) قال: أخبرني (أبو القاسم جعفر بن محمد ابن قولويه) عن (محمد بن يعقوب الكليني) عن (علي بن إبراهيم بن هاشم) عن أبيه عن جماعة من رجاله عن (يونس بن يعقوب) قال: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال له إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك -لم يقل لمناظرتك رعاية للأدب- فقال له الصادق عليه السلام: كلامك هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله بعضه، ومن عندي بعضه، فقال له أبو عبد الله: فأنت إذن شريك رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: لا، قال: فسمعت الوحي عن الله، قال: لا، قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: لا، فالتفت أبو عبد الله إلي وقال: (يا يونس بن يعقوب) هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم قال: (يا يونس) لو كنت تحسن الكلام كلمته، قال يونس: فيا لها من حسرة. فقلت: جعلت فداك إني سمعتك تنهى عن الكلام وتقول ويل لأصحاب الكلام يقولون هذا ينقاد وهذا لا ينقاد وهذا ينساق وهذا لا ينساق وهذا نعقله وهذا لا نعقله، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنما قلت ويل لقوم تركوا قولي وذهبوا إلى ما يريدون، ثم قال: اخرج إلى الباب وانظر من ترى من المتكلمين فأدخله، فخرجت فوجدت «حمران بن أعين» وكان يحسن الكلام و«محمد بن النعمان» وكان متكلماً و«هشام بن سالم» و«قيس الماصر» وكانا متلكمين، فأدخلهم عليه فلما استقر بنا المجلس وكنا في خيمة لأبي عبد الله عليه السلام على طرف جبل في طرف الحرم وذلك قبل الحج بأيام، أخرج (أبو عبد الله) رأسه من الخيمة فإذا هو ببعير يخب فقال (هشام): ورب الكعبة، يعني (هشام بن الحكم) وبعد أن تكلمنا جميعاً مع الشامي أمر الصادق الشامي أن يكلم (هشام بن الحكم) فقال: نعم، ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا يعني أبا عبد الله عليه السلام فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال له: أخبرني يا هذا، ربك انظر لخلقه أم هم لأنفسهم فقال الشامي: بل ربي انظر لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟ قال: كلفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلفهم وأزاح في ذلك عللهم، فقال له (هشام): فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟ قال الشامي: هو رسول الله صلى الله عليه وآله، قال له (هشام): فبعد رسول الله صلى الله عليه وآله من؟ قال: الكتاب والسنة، قال له (هشام): هل ينفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه حتى رفع عنا الاختلاف، ومكننا من الاتفاق، قال: نعم، قال له (هشام): فلم اختلفنا نحن وأنت وجئتنا من الشام، تخالفنا وتزعم أن الرأي طريق الدين وأنت تقر بأن الرأي لا يجتمع على القول الواحد للمختلفين، فسكت الشامي كالمفكر فقال له أبو عبد الله عليه السلام: مالك لا تتكلم؟ قال: إن قلت أنا ما اختلفنا كابرت، وإن قلت أن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه ولكن لي عليه مثل ذلك، فقال له أبو عبد الله عليه السلام سله تجده ملياً، فقال الشامي لهشام: من أنظر للخلق ربهم أو أنفسهم؟ فقال (هشام): بل ربهم أنظر لهم، فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين حقهم من باطلهم، قال هشام: نعم، قال الشامي: من هو؟ قال (هشام): أما في ابتداء الشريعة فرسول الله صلى الله عليه وآله، وأما بعد النبي، فغيره، قال الشامي: ومن هو غير النبي القائم مقامه في حجته؟ قال (هشام) في وقتنا هذا أم قبله؟ قال الشامي: بل في وقتنا هذا، قال (هشام): هذا الجالس، يعني أبا عبد الله الصادق عليه السلام. الذي تشد إليه الرحال ويخبرنا بأخبار السماء، وراثة عن أب عن جد، قال الشامي: وكيف لي بعلم ذلك؟ قال (هشام): سله عما بدا لك، قال الشامي: قطعت عذري فعلي السؤال فقال له أبو عبد الله عليه السلام: أنا أكفيك المسالة يا شامي أخبرك عن مسيرك وسفرك خرجت في يوم كذا، وكان طريقك كذا، ومررت على كذا، ومرّ بك كذا، فأقبل الشامي كلما وصف له شيءً من أمره يقول صدقت، ثم قال له الشامي: أسلمت لله الساعة، فقال به أبو عبد الله: بل آمنت بالله الساعة إن الإسلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون والإيمان عليه يثابون. قال الشامي: صدقت فأن الساعة أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، وأنك وصي الأوصياء. وأقبل أبو عبد الله عليه السلام على «حمران بن أعين» فقال يا حمران؛ تجري الكلام على الأثر فتصيب والتفت إلى هشام بن سالم، فقال: تريد الأثر ولا تعرف، ثم التفت إلى (الأحوال) فقال قياس رواغ تكسر بباطل إلاّ أن باطلك أظهر، ثم التفت إلى (قيس الماصر) فقال: نتكلم وأقرب ما تكون من الحق والخبر عن الرسول صلى الله عليه وآله أبعد ما تكون منه تخرج الحق بالباطل، وقليل الحق يكفي من كثير الباطل، أنت (والأحوال) قفازان حاذقان، قال (يونس بن يعقوب): فظننت والله أنه يقول

(١) نهج البلاغة، المجلد ١، ص٢٣.

لهشام بن الحكم قريباً مما قال لهما. فقال: يا هشام لا تكاد تقع حتى تلوي رجليك إذا هممت بالأرض طرت مثلك فليكلم الناس. اتق الله الزلة والشفاعة وراءك. ولهذا يقول الشريف المرتضى (إن الإمام يجب أن يكون أعلم الناس) إذ لو لم يكن أعلم الناس لم يؤمن أن يقلب الأحكام والحدود وتختلف عليه القضايا المشكلة فلا يجيب عنها أو يجيب عنها بخلافها[١].

وجد تحديد ملامح هذا العلم فيما روي عن الصادق عليه السلام إذ يقول: (إنا أهل بيت، عندنا معاقل العلم، وآثار النبوة، وعلم الكتاب، وفصل ما بين الناس)[٢].

وهذا العلم لا يمكن أن يحد حيث قال عنه عليه السلام: (والله أعطينا علم الأولين والآخرين)[٣].

هناك مناظرات عديدة مع الإمام الصادق عليه السلام كمناظرة ابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن أعمى وابن المقفع... الخ في مسائل تخص علم الكلام[٤].

وروى النجاشي في رجاله بسنده عن الحسن بن علي الوشا في حديث أنه قال: أدركت في مسجد الكوفة تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد الذي كان يقول: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب وحديث علي حديث رسو الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله قول الله (عز وجل)[٥].

الخاتمة

في ختام هذا البحث نشير إلى أهم النتائج التي تمخض عنها، والخروج بما هو ضروري من أمور، حيث تبلورت أهم النتائج المنتزعة في الآتي:

١- إن علم الكلام نشأ في الكوفة وعلى يد شخصيات عديدة أبرزهم (الجهم بن صفوان) الذي يكنّى بأبي محرز وتناظر مع كثير من مؤسسي هذا العلم خصوصاً مع (الجعد بن درهم) الذي أخذ عنه منهج التأويل[٦].

٢- بيئة الكوفة بيئة كانت نموذج بآراء فلسفية وعقائدية تشجع أهل الفكر في طرح الآراء بحرية تامة.

٣- إن مدرسة الإمام علي عليه السلام في الكوفة التي احتوت كثير من الشخصيات في مختلف العلوم، كالحديث، والفقه، والنحو والأصول، والكلام لا يمكن نكرانها خصوصاً عندما اكتملت في زمن الإمام الصادق عليه السلام حيث عقدت مناظرات كلامية قد أشرنا إليها في طيات البحث.

٤- إن تاريخ نشوء علم عام (٣٧هـ) أي أثناء خلافة الإمام علي عليه السلام حيث كثرت الاختلافات والحروب مما اضطر كثير من الناس طرح الأسئلة الكلامية على الإمام فكان جوابه عليه السلام بذور كلامية لاشك فيها.

٥- من أبرز الشخصيات الكلامية التي أثرت على واصل بن عطاء (ت١٣١) شيخ المعتزلة شخصية أبو هاشم عن علم أبيه، فأجاب: انظروا إلى أثره في (واصل)[٧].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

* * *

(١) الشريف المرتضى، الناسخ والمنسوخ (مخطوط) مكتبة أمير المؤمنين(ع)، (١٣٨٦/ ٥)، كذلك العلامة الحلي: الألفين في إمامة أمير المؤمنين ١٢٤.

(٢) المفيد، الاختصاص، ص٣٠٢.

(٣) ابن آشوب (ت٤٨٨هـ)، مناقب آل أبي طالب.

(٤) ينظر تفصيلات ذلك الآمال للسيد المرتضى.

(٥) ينظر الصدوق: التوحيد، ص٢٧٠.

(٦) ينظر القاسمي الدمشقي: تاريخ الجهمية والمعتزلة، ص٤٤-٤٥.

(٧) الحميري: الحور العين، ص٣٠٧.